Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعروف أن يوسف إدريس بدأ حياته الأدبية كاتبًا ملتزمًا. لقد انتسب وهو ما يزال طالبًا فى كلية الطب إلى الخلايا الماركسية السرية فى مصر. وقسم كبير من أعماله فى مرحلته الأولى هذه، مرحلة الماركسية واليسار، يندرج فى إطار الدعوة إلى الفكر الاشتراكى ونصرة الطبقة الكادحة. ولكن هذا الكاتب الملتزم تراجع عن التزامه فيما بعد ليتحول إلى كاتب لا هوية واضحة له. فهو يتباهى يومًا بأنه يسارى حقيقى ويحمل على اليساريين الآخرين، ليصبح فى الغد داعية لأية فكرة تخطر فى باله، ثم ليتراجع عن هذه الفكرة فى اليوم التالى، ثم ليفقد فى الأخير القدرة على كتابة أية فكرة.

فى إحدى زياراتى لمصر عام ١٩٨٨ التقيت بأحد الكتاب المصريين وأنا فى طريقى إلى «الأهرام» للقاء يوسف إدريس. قلت لهذا الكاتب: إننى على موعد مع يوسف إدريس فعّما أسأله؟ فأجابنى وهو يضحك: أسأله لماذا انقطع عن الأدب.. أسأله عن تاريخ كتابة قصصه الأخيرة فى مجموعته الصادرة هذا الأسبوع «العتب على النظر».. ذلك أن الكثيرين كانوا يشكّون يومها فى أن يوسف إدريس قد كتب حديثًا قصص هذه المجموعة، ورجّحوا أن يكون قد «جمعها» من مراحل سابقة أو أوراق قديمة له..

وعندما وصلت إلى مكتبه فى الطابق السادس متأخرًا قليلاً عن الموعد قال لى سكرتيره: هل يمكن أن تنتظر عندى لساعة أو لساعتين كى ينهى كتابة مقاله الأسبوعى؟ لقد حضر فى الصباح الباكر ولكنه لم يُنْه مقاله بعد: فهو يكتب ويمزق، ثم يعيد الكتابة بلا نجاح يذكر، ويطلب سجائر وقهوة، فأرجو تفهّم الوضع..

والواقع أن رحلة يوسف إدريس الثانية، مرحلة اللاالتزام والضياع واللاّبوصلة إن صح التعبير، كانت مرحلة عجفاء خالية من الإبداع بتاتًا تقريبًا. فقد يوسف إدريس القدرة على كتابة القصة والرواية والمسرحية، وانصرف إلى كتابة مقالات تعالج قضايا الناس اليومية؛ قصد من ورائها أن يتحول إلى «شخصية اجتماعية» ذات رأى فى قضايا ومشاكل الناس المعيشية والاجتماعية والسياسية. وهذه المقالات تضع يوسف إدريس فى عداد الصحافيين أو السياسيين أو المصلحين أكثر مما تضعه فى عداد الأدباء. ودارس هذه المقالات، ودارس هذه الحقبة من حياته، سينتهى إلى وضع يوسف إدريس فى عداد «السياسيين» وبالمعنى الشعبى أو التقليدى المتداول فى